صاحب الجلالة الملك يخاطب هيأة المهندسين المعماريين

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على مولانا رسول الله وآله وصحبه

حضرات السادة

إنني مسرور جداً بمقابلتكم لأسباب متعددة.

أولا : أكون دائما مسرورا حينما ألتقي بنخبة من الشباب المغربي.

ثانيا : كلكم يعلم أن جميع الأسر الملكية التي تعاقبت على المغرب كانت شغوفة بالبناء والتشييد والتعمير.

ثالثا : تعلمون الأهمية التي أعطيها وأعيرها لكل ما من شأنه أن يثبت حالتنا وأن يفتح مواهبنا وأن يدل دلالة واضحة على أن المغاربة ولله الحمد والشكر يتميزون بجميع الميزات التي تجعل من الإنسان المغربي إنساناً متحضراً مسايراً لكل ما من شأنه أن يكون لبنة مهمة في التعمير والتشييد والجمال.

إنكم حضرات السادة، حينما اخترتم مهنة المهندسين المعماريين اخترتم مهنة صعبة جداً، ذلك أن مهنتكم يجب أن تكون متقنة من الناحية العلمية، وأن تكون مستجيبة لما يتطلبه الزبون، ويجب أن تكون كذلك متناسقة مع البيئة التي تشيدون أو تخططون لها، أخيراً يجب عليكم — ولو كنتم تقومون بعمل منفرد — أن تكونوا منسجمين، بمعنى أنه من بنى منكم داراً في حي معين ليس من اللازم أن ذلك الشخص الذي سيبني دارا أخرى بجواره أن تكون هذه الدار مماثلة تماماً لداره، ولكن ينبغي أن تتشابهوا في نفس الوقت حتى نتجنب الفوضى.

فهذه ميزات مهنتكم وهي خاصة بكم، فيما يخص تفهم الإنسان الذي كلفكم يتمثل في أنه إذا انفردتم بعمل فينبغي ألا يكون هذا العمل خارجا عن التنسيق الموجود في الحي أو الجماعة التي ستعملون بها، وإذا انطلقتم من هذا المنطلق سواء في العمل الفردي أو الجماعي فإنه سيمكننا — حقيقة من حيث الذوق أو التقنية — أن نطمئن على بلادنا بالنسبة للأجيال المقبلة.

فبلادنا جميلة، بآثارها ولكن بناياتها دون ذلك، ولا أتحدث هنا على مدن القصدير، بل عن شوارع بلادنا، وأتكلم عما يراه الأجانب، وما نراه نحن عندما نمر في بعض الأزقة والشوارع، وأحسن من ذلك سأعطيكم مثالا :

هناك بعض المحلات إذا ما أخذنا شخصاً وأغمضنا عينه وأنزلناه في مدينة من المدن عبر طائرة هيليكوبتير وقلنا له في أي مدينة توجد، فإنه لن يعرف هذه المدينة، بل ربما لن يظن أنه موجود بالمغرب، لأنه سيحتار.

وهذا شيء موجود سواء في المدن الجبلية أو في المدن القريبة من المدن الكبيرة، وسأعطيكم مثالا على ذلك بمدينتي تيفلت وميدلت، ولما أذكر هاتين المدينتين فإنني أختصر الحديث، وبالعكس فإنه لا يمكن لأي أحد أن يتيه إذا ما وضعناه في أزمور يكفي أن يرى وادي أم الربيع والأسوار العتيقة ليعرف أنه في المغرب



وسيقول : انها من المدن الشاطئية التي كانت بها قصبات بناها الملوك المغاربة سعديين كانوا أو علويين، وهذا أمر مناط بكم وبمحبتكم لبلدكم ورغبتكم في أن يظهر بأحسن مظهر ممكن.

هناك عدة مظاهر ربما تجهلونها، ومن شأنها أن تسهل مأموريتكم في المستقبل، وأظن أن جلكم زار باريس، لنأخذ مثلا ساحة فاندوم، ومن رأى هذه الساحة يقول : إنها أحسن ساحة وأن بناءها أحسن بناء في شكله، ولكن لا أظن أن أحدكم لم يصعد إلى أحد السطوح القريبة من الساحة ليرى جميع أنواع البنايات من وراء الواجهة وهي بنايات فوضوية جدا، معنى هـذا أنه من واجبنا المحافظة على رونق ساحاتنا بدون تضييق على حرية ذوق السكان والزبناء، فمظاهر مدننا بشعة، والحدائق غير موجودة، ومحلات الترفيه والتسلية للأمهات وأبنائهم منعدمة، وحيثما وجدت قطعة أرضية فارغة عوض أن نزرع فيها أشجاراً وأزهاراً تجد فيها تجمعات رياضية أو اجتماعية أو مدارس، والحالة أن هناك محلات أخرى أليق وأنسب لهذه البنايات، إنكم لستم مسؤولين عن ذلك، بل ترجع المسؤولية هنا إلى المنتخبين.

وحتى لا نخرج عن فرنسا، في الأيام الأخيرة عندما التقيت بأبنائي المغاربة في باريس بحديقة سان كلو، ومن المؤسف ومن المأساة أن تلك الحديقة التي تحتوي على أنهار ومياه وأشجار ولو استعمل الإنسان مكبرات الصوت ليس بها طير واحد يغرد بحيث ان جميع الأطفال المولودين في ذلك الحي إذا لم يخرجوا عن حيهم ويبتعدوا عشرة كلمترات أو خمسة عشر كلم من باريس فلن يسمعوا ربما في حياتهم تغريدة طير، والحالة أن ميزات الطفولة هي قربها من الطبيعة، عندما نكون أطفالا إما أن نحب الزهور وإما أن نصبح بدون ذوق، إما نرى الطيور وتعجبنا الطبيعة وإما لا نتربى على الطبيعة ولا على الجمال، ولا نتربى على الشيء الذي علينا أن نعيش فيه، فهذان المثالان أعطيتهما لكم كي تعرفوا أنكم مسؤولون في المستقبل، ونحن لا نتكلم عن الماضي حتى على تربية الشاب أو الطفل الذي سينشأ، بالطبع ليس لكل واحد المال ليبني كما أراد، ولكن أعتبر شخصيا أن عدم وجود المال لا يتناقض مع الكرامة، والذي نشأ وشب في حي بشع لا يتوفر على أي شيء يجعله يكبر ناقماً مدة ما على المجتمع، يمكن إذا تطور — وعلى أي حال يقال هذا رزق الله يفرقه على من يشاء — أن يرجع عن ذلك، ولكن الجل يكبرون ناقمين أو بدون الفكرة الخلاقة الإيجابية، وليس عندهم إلا النقد والإنتقاد وهذا شيء سلبي.

فمن الآن فصاعدا يجب أن تنظروا إلى هذا الجانب من مسؤوليتكم، إلى حد الآن تظنون أن مسؤوليتكم هي أن تروا هل السقف متين لن يهوي ؟ وهل البيوت على ما يرام ؟ لا، إن مسؤوليتكم تتكامل مع مسؤولية الأطباء، فكما أن الطبيب يحاول أن يعالج الطفل المريض في بيته، يجب عليكم أنتم كذلك أن تكونوا كالطبيب اليومي، لأن الطفل عندما يستيقظ كل صباح يجب أن يكون راضياً ببيته غير خجول، وعندما يمشي بين المدرسة ومنزله ينبغي أن يعيش طفولته في الحدائق والبساتين، نحن على أبواب سنة 2000، ومما لاشك فيه أن أحفادنا سيذهبون لقضاء نهاية الأسبوع إما في القمر وإما في المريخ، إلا أنه كيفما كان الحال فإن أرضنا هي أرضنا، وهي التي أعطانا الله ولم يعطنا شيئاً آخر، فعلينا أن نحافظ للكرة الأرضية على مميزاتها، وعلى الأقل في بلادنا لا يجب علينا التنكر لأمنا الكبيرة وهي الكرة الأرضية، أمنا الكبرى هي الأرض التي عليها ولدنا والتي نعيش فيها، والتي نفتح أعيننا عليها.

فعليكم من جهتكم أن تعينونا، فحتى إذا حاول الأساتذة تكوين الشاب المغربي الأنيق فكريا، علينا أن يكبر هذا الشاب أنيقا من ناحية الذوق وشغوفا بالجمال، وهذه مسؤوليتكم فابتعدوا كل البعد عن البشاعة

وتشبثوا بالكرامة البشرية، حتى في بعض الدور السكنية التي نرى كما يقال . انها رخيصة أو اقتصادية في بعض المرات لا نحسن تصميماتنا، لأنه عوض أن نسكن سبعة أشخاص نضع مكانهم عشرة، وذلك المشكل يصبح نفس المشكل، لأن سبعة أشخاص مرحين وكدست عليهم ثلاث عائلات ليصبحوا عشرة ناقمين، سواء أولئك الذين ولدوا في آخر السنة أو أولئك الذين بنيت من أجلهم العمارة دائما ناقمين بحيث أننا لا نوفي بالحاجيات، ونظن أننا وسعنا ورفهنا على الناس، لابل نكون قد صرفنا أموالا ونظن أننا ضيقنا عوض أن نوسع، ونظن أن الناس مرتاحون، ولكن بالعكس هم متذمرون، فهذه العناصر كلها تتطلب التفكير الذي لا ينحصر فوق مائدة الرسم والأقلام، لست أدري هل فهمتم الرسالة التي أريد أن أبلغكم وأعرفكم بأنفسكم أفضل مما تعرفونها أنتم ؟

مهنتكم أعلى وأغلى مما تتصورون، لا تتطلب الحساب فقط بل تتطلب حساسية وفلسفة وإلماما بعلوم الإجتماع، ومعرفة بالناس الذين تخدمونهم، وهو الإنسان وهو البشر بمطامحه ومسراته ومؤاخذاته.

الحقيقة أن دوركم أكبر مما تظنون، وتهييئكم لأي مشروع يتطلب أن تطلعوا على ما قبله وتتطلعوا إلى ما بعده، لما تكونون منهمكين في الرسم فإنكم لا ترسمون حائطاً أو سقفا بل ترسمون فلسفة الحياة إما فردية عندما تشتغلون لصالح فرد، وإما جماعية عندما تخدمون للمدينة أو البلدية.

فكونوا وفقكم الله في مستوى الرؤية التي لدي عن المهندس.

ورؤيتي في المهندس هي أكبر مما تظنون، لأنه قبل كل شيء هو إناء جمع ما تفرق في غيره، لأنه يجب عليه أن يرضي زبونه ليس فقط في جمال ما ينجز بل حتى في سد الحاجيات النفسانية التي لا يمكن للانسان أن يعبر عنها كانت دوراً فخمة أو دوراً متوسطة أو مباني سكنية متواضعة، من الضروري أن تكون متصفة بالجمال وداخلياً متصفة بالراحة والطمأنينة بالطبع، وهذا لا يمنع من كان فقيراً أن يتمنى أن يكون مالكا لمنزل

أحسن، ولكن قلت لكم : إن طموحه ليس طموحا للشيء لا بل بالنظر لشيء حسن.ويريد ما هو أحسن، فأنتم كثيرو العدد بالمغرب، وعددكم يصل إلى حوالي ثمانمئة ونيف، لما أردت أن أنظر إلى توزيعكم وجدت أنكم تنقسمون إلى قسمين، فيكم من يشتغل في مكاتب خاصة، وفيكم من يشتغل للإدارة.

ولما نظرت في هاتين الفئتين وجدت ثلاثة أرباع المهندسين يوجدون في الرباط والدار البيضاء، النتيجة أنكم لستم جميعا تشتغلون، ولا أحد منكم أحسَّ بالعبقرية التي تصعد من الأرض، إن أزال حذاءه وسار بعض الشيء حافي القدمين على الأرض هناك نوع من العبقرية تصعد من الأرض ولو تكون وحلا، عندي اليقين أنه ولا أحد فيكم سافر إلى صفرو والحالة أنني أعتبر مدينة صفرو من أجمل ما يكون، وأصبحت من أبشع ما يكون.

زوروا القصبات الموجودة في الجنوب والموجودة في الجبال انظروا إلى الألوان المختلفة في أرضكم وجبالكم وسهولكم، حاولوا أن تبتكروا شيئا فلهذا قررنا رعاية هيأتكم ويجب عليكم أن تكونوا أهلا لذلك.

وقد كلفنا الأستاذ الربيع من مصلحة التشريع لدينا ليتذاكر معكم فيما يخص قوانين تسيير هيأتكم، ولكن من جملة الأمرين المهمين اللذين أدخلناهما على هيأة المهندسين، أولا : أنه لا يمكن للمهندس أن يفتح مكتبا خاصا به حتى يكون قد قضى سنتين مع أحد المهندسين المختصين أو ثلاثة، لماذا ؟ لأن الطبيب لن يصبح طبيبا إلا بعد قضاء سبع سنوات وهو يفحص المريض، ولا يكتفي بالدراسة فحسب أمام أستاذه، والمحامي لا يفتح مكتبه



إلا بعد أن يقضي مع أحد المحامين المعروفين مدة ثلاث سنوات أو أربع، أما المهندس فيكتفي بالإعلان في الجرائد عن فتح مكتبه، وقد تخرج من المدرسة الفلانية لا غير، وهذا شطط بالنسبة للحرف الأخرى، ومضربكم، لأن كل واحد أخذ يزاول هذه المهنة لابد وأن يخطىء، لأن أي أحد منا لا يولد متعلما، وتلك المدة التي سيقضيها المهندس الجديد في إطار التدريب لدى المهندسين القدامى ستكون له بمثابة حصيلة أخرى تعلمها عمليا زيادة على ما تعلمه نظريا.

النقطة الثانية ــ وهي من أسباب هذه البلوى على ما أظن التي نراها من هذه البشاعة، وهو أنه في القانون القديم لم يكن ملزماً بالتخطيط والتصميم وتوقيع المهندس إلا في المدن والبلديات، أما القرى فالإنسان يمكنه أن يبني كما أراد ؟، لماذا ؟ أظن أنّ المشرع يعتقد أنّ المواطن الذي يعيش في المدينة لديه الوسائل المادية لصرف أتعاب المهندس، أمّا من يعيش في البادية فليس لديه الإمكانات لتسديد ذلك.

وحتى نضمن سلامة السكان في البوادي والقرى وجمال البناءات كانت قيساريات أو دكاكين أو غيرها، وحتى نلزم الناس بالتعامل مع المهندس كيفما كان في البلدية أو القرى قرّرنا أن نطبق على هيأتكم ما يطبق على المحامين، فعندما يرتكب شخص ما جريمة ولديه مرافعة وليس لديه أجرة المحامي فإنه يستفيد من المحامي مجاناً، وحتى نكون على يقين من أن كل الناس سوف تتعلم، سيكون لديها تخطيط جدي تحت المسؤولية التقنية للمهندس، وسوف تعمل هيأتكم كهيأة المحاماة، وهناك سابقة حيث يوجد في المغرب من يعالج مجاناً، ومن يتلقى العلاج بالمقابل، وهناك من يدافع عليه المحامون كذلك مجاناً، ومن يدفع المقابل للدفاع عنه.

وكذلك بالنسبة للراغبين في الحصول على السكن، هناك من سيسكن ويؤدي أتعاب المهندس، ومن يشكو من ضيق ذات اليد سوف يسكن مجاناً، وهيأة ذلك المهندس هي التي ستتكفل بذلك، وهذا القانون الجديد أدرجناه في مهنتكم حتى تكونوا حاضرين في جميع مراحل البناء كانت قرى أو قيساريات أو بلديات صغيرة أو كبيرة، فيجب على المهندس أن يكون مشرفا على هذه الأشياء، والنصيحة الثالثة التي أزودكم بها نظراً لما قلته لكم في أول خطابي هذا عن مهنة المهندس، مازال المجال واسعاً أمام غالبيتكم الذين هم من مواليد الأربعينيات 45 ــ 46 ــ 47، لتقوموا بإجراء تحويل حتى داخل تكوينكم إن بدأتم تشيدون كلكم فلن يوجد هناك من يخطط للحدائق، ولو أنكم خططتم جميعاً للحدائق فلن يوجد هناك من يشيد، والبناء كما قلت لكم ليس إنجازه في أي مكان، فالبلديات وعددها يصل اليوم إلى حوالي الألف تقريباً في حاجة إلى مهندسين، وهناك من البلديات من تحتاج إلى ثلاثة أو أربعة مهندسين ليصل في بعض الأحيان إلى عشرة ليقوموا بوضع التخطيطات الأساسية أو التزيين الداخلي للبلديات، فمع أن عددكم كثير فإن الأعمال موجودة، فإذا عرفتم كيف تتوزعون على مناطق المغرب، وهذا من اختصاصات هيأتكم، وإذا عرفتم كيف تقومون بالتحويل اللازم، البعض يتوجه للعمارات الجماعية المتوسطة والجميلة، والآخرون للعمارات السكنية، والبعض الآخر لعمارات المكاتب والبناءات التقليدية كبناءات المساجد والقيساريات التقليدية، وبناءات المصالح العمومية التي يجب أن تحافظ على طابعها المغربي فلي اليقين أنكم ولو أن عددكم ثمانمئة مهندس ولو أصبحتم غدا عشرة آلاف فالمغرب ولله الحمد بلاد شابة حية تبني وتريد أن تبني، والمغربي يفضل أن يكون له بيت، لأنه لا يرتاح إلا إذا كان داخله، وإذا قمتم بالتحول المنشود حتى لا تكونوا تقتصرون على حمل الأحجار، ولكن كذلك تسطرون الجمال لبلدكم ولأبنائكم وحفدتكم، فلي اليقين أنكم سوف تتوزعون في المغرب التوزيع اللائق، وسوف تقومون بواجبكم على الشكل وبالروح التي أريتكم والتي حللت لكم بها كما أرى شخصياً وأعتقد هوية وشخصية المهندس المغربي.

والآن سوف تكونون مكتب هيئتكم، فبكل صراحة أظن أن بعضكم لا يعرف البعض الآخر كثيراً لأنكم لستم منظمين كالأطباء والصيادلة والمحامين.

وأنا أقول دائماً بالروح الديمقراطية، لأن يد الله مع الجماعة، يجب عليكم أن تكونوا هيئتكم الوطنية والهيآت الجهوية تكون منتخبة، ولكن عوض إعادة الإنتخاب دوريا بعد أربع سنوات أو خمس كما هو في المهن الأخرى حتى تقفوا على أرجلكم، وأقول على سبيل المثال : إنَّ انتخاب مكاتبكم سوف يجري سنة 1986، ولكن سيُعاد انتخابها النهائي، لأن هذه المكاتب مؤقتة ريثما ننظر في ما سيستجد ونتقي، والإنتخاب النهائي يجري في 1987، ولكن القوانين التي سوف تضعونها هي القوانين التي ستسري بصفة نهائية على هيئتكم.

وأنا مستعد لاقتبال مكتبكم حال تكوينه وهو المكتب الوطني، كما أن المكاتب الجهوية سوف أزكي بظهيري وخاتمي الشخصي الذي وقع عليه اختياركم وصوتم عليه، وسوف أزكيه فقط كالمجالس البلدية، ومكاتب الأطباء، وأنا أزكي وأبارك اختيار الرعية.

وأنا في انتظاركم إن شاء الله بعد تنظيم هيكلكم، وكونوا على يقين أنه عندما يصبح مكتبكم جاهزاً وكذا المكاتب الجهوية سيمكنني إذ ذاك أن أتتبع أنشطتكم، وأنتم كذلك بإمكانكم الإتصال بي أكثر وأسهل، لأنه يستحيل أن يكتب الأجانب في الخارج (الحسن الباني)، وأستدير يمنة ويسرة ولا أجد إلا البشاعة.

فإذا كانت هناك هيأة أتعامل معها فلنحاول أن نخلق شيئا متوازنا مع ما تركه أجدادنا، وهذا المكان الذي تجلسون فيه ليس جديدا، بل يرجع إلى أربعمئة سنة، وقمنا بإدخال تحسينات عليه حسب ضروريات اليوم.

إلا أنني أريد أن يكون أحفادنا وأحفادكم جميعاً يحفظون هذا البيت الشعري :

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

أعانكم الله، والسلام عليكم ورحمة الله.

أُلقي بالدار البيضاء

الثلاثاء 3 جمادى الأولى 1406 — 14 يناير 1986